

غرب حاكم وشرق محكوم

ليخائيل نعيمة

من الأوهام المسيطرة على عقول الناس - وما أكثرها - وهم أن في استطاع
الإنسان أن يحكم إنساناً من غير أن يكون محكوماً منه . والواقع أنه ما قامت علاقة بين
مخلوق ومخلوق إلا كان فيها شركة للآئين ، وكانت حصة الواحد معادلة لحصة الآخر

فأنتم ما أخذتيم بلحم الأرض ودمها إلا غذيتموها بلحوتكم ودمانكم . ولا استخدمتم
بهيمة إلا كنتم خدامها . ولا ملكتم شيئاً إلا ملككم . ولا حكتم إنساناً إلا حكمكم

هل عرفتم رب عائلة ما تحكّم فيه كل فردٍ من أفراد عائلته ، حتى الذي ما يرح مقمطاً
في الهدى ؟ أو هل سمعتم بقائد قاد جيشاً وما قاده جيشه ؟ أو هل قرأتم من كتاب إلا تعلّى قدر
ما قرأ ذلك الكتاب منكم ؟

لا يستطيع حاكم أكثر مما في استطاعة محكومه . فقدره المحكوم هي قدرة الحاكم .
وإذا ذاك فما معنى هذه الهالة من الجلال والعظمة والنردد والرفعة والسعادة تنسجها أوهام
الناس حول هامات حكامهم ، ولا تجد غير الذل والحقارة والصغاراة والعاماة العمياء وفكران
الكرامة تنسج منها أقمعة لأبصار محكوميهيم ؟

إن يكن في الحكم جلال فهو جلال المحكوم قبل أن يكون جلال الحاكم . أو تكن فيه
صغاراة فهي صغاراة الحاكم والمحكوم بالسواء

وما علاقة الحاكم بالمحكوم سوى علاقة طارئة تفرضها أحوال طارئة من عالم خفيّ
ما توصل إلى الإنسان بعد إلى الوقوف على أسراره والسيطرة على منابها ومجاريها . فحاكم

الأمس يصبح محكوم اليوم . ومحكوم اليوم يفتدو حاكم الغد ، لا كسباً لشرف أو امتناناً
لكرامة ، بل امتثالاً لشيئة البشرية الخفية في سيرها نحو انثل الأعلى ، وتحقيقاً لرغبات في
نفسها لا تزال أبعد من تناول مداركها وأعمق من نفوذ ونسبها

والسرّ في عدم نيات الحكم البشري وسرعة تنقله من يد الى يد ، ومن ذئبة الى ذئبة
ومن شعب الى شعب ، انما هو في انفس البشرية وما في ذواياها الغريبة من خبايا عجيبة
انه لمن الصعب أن تبوق قطعاً من النسم بعضاً واحداً . فلا بدّ ولو من كعبش
واحد يتبرّد على عصا الراعي وصوته . فكيف يقطع من البشر نومه بعضاً واحداً ،
والي الأبد ؟

أما كان فرعون سيّد مصر اللطوق يوم جاءته ابنته بلقيط حظيت به على ضفّة النيل
فرباه في قصره ؟ وذلك اللقيط جرّ فرعون ومركباته فيما بعد الى مدفن من الأوحال في
قعر البحر الاحمر . فأبيّ الاثنيين كان حاكم الآخر ؟ أفرعون كان حاكم موسى ، أم موسى
كان حاكم فرعون ؟ ومن أين كان لفرعون أن يعرف القوى المدفونة في نفس موسى والغاية
التي ندرته لها المشيئة الكليّة ؟

أما كانت رومة الحاكمة المطلقة في الجليل واليهودية يوم وُلد ابن مريم ويوم راح يبشر
بملكوت الله ، وما هي ذي بشارة ابن مريم لا تزال ماضية من فم الى فم ومن قلب الى قلب ،
فأين رومة وجحافل رومة ؟ أكانت رومة حاكمة الجليل أم كان الجليل حاكم رومة ؟
ومن أين كان لرومة أن تتكهن بما ستفتح عنه شفنا الظنل للولود في مذود للبهائم في
بيت لحم ؟

أما كانت قرينس سيّدة لا يناهضها مناهض في مكة يوم قام يقيم لا سلطان في يده يدعو
الناس الى الآله الأوحاد ؟ وأين اليوم سلطان الذين اضطهدوه وقاتلوه من سلطانه ؟ أكانوا
هم حكامه أم كان هو حاكمهم ؟ ولو درت قرينس يومذاك بما انطوى عليه قلب ذلك اليقيم
من قوى واسرار ظنّت امامه صاغرة بدلاً من ان تصدى له بموه

والآن ماذا عاكم تقولون فيمن يقول لكم ان مشكلة الحكم ما بين الشرق والغرب ليست بالمشكلة التي تتوهمون . فالغرب لا يحكم اليوم الشرق اكثر مما يحكم الشرق الغرب . لكننا المتوسف والمؤجج في هذا الحكم ألا يكون فيه ما يشرف او يعجزه الاثنين . فهو لا يقوم على مودة واخوة وعبة حسرية بان تربط التوأمين ، بل على منافع موهومة تندها الايام والليالي فاذا بها حرك ولا حيب ، واذا بها العوبة للرياح

ومن ثم فأي حكم دام وأي حاكم تمكن يوماً من سبر اعماق محكوميه والوصول الى كل ما في اغوارها من قوى حاجنة تشملل للوثوب ؟ وان هو لم يتمكن من ذلك فبماذا وكيف ومن حكمة ؟ ومن يدري بماذا حبل هذا الشرق في غضون هيمته الطويلة وبماذا يتمخض اليوم ؟

انه لا شك يتمخض بأمر أعجب وأعظم بكثير من التي يحلم بها أبنائه ويعبونها من خطر الشان في أعلى مكان . فهم يحملون — في جلة ما يحملون — بعناء بعونها الاستقلال . ويتوهمون أنهم اذا ما ظفروا بها يوماً ظفروا بالغبطة التي ما بعدها غبطة . ألا ليت الاستقلال كان ما يتوهمون . ألا لينة ما كان أكثر من استبدال حكم بحكم ، ووجه برجه ، ولدان بلان

ألا لينة كان ينال — كما يزعمون — ببذل الفلوس والدم . اذن لما كان اغلاه لعمه يتناهما الناس بمثل ذلك الشئ الزهيد . لكن الاستقلال غير ما يزعمون . فما استقل انسان في قلبه من الضمائم بشور ودمايل ، وفي فكره من المخاوف ديجور فوق ديجور . ولا استقل من كان الفلوس في جيبه سيده واميره . ولا من كان مقوده في يد غير يده

وأى أبناء هذا الزمان ، أي شعوبه ، أي أمصاره يستطيع القول بأن مقوده في يده ؟ أمهل لا حاكم الانسان إلا الانسان ؟ اذن أين أذم من الموت ؟ ومن الطيعة التي اذا ماتت كفتها فوق حاجاتكم أغرفكم ، او أمسكتها دون حاجاتكم خنقتكم ؟ بل أين أذم

من التباينة والبعوضة والجراثيم التي لا تبصرونها تقضّ عليكم مصابكم وتمتّم حتى النور في أبصاركم ؟

ان تكن تلك حالكم مع أنفسكم ومع غير الناس فكيف بحالكم مع الناس ؟ من حكم ليس محكوماً من نسيب او حبيب ، او صديق او عدو ، قبل ان يكون محكوماً من رئيس دولة وقاضٍ وشرطي ؟

ما من مناص للانسان من الانسان وحكم الانسان . وكذلك الشعوب — ما تجانس منها وما تخالف ، وما تصادق منها وما تعادى — لا مناص لايّ منها من ان يكون حاكماً ومحكوماً في آن واحد . ومن خيّل اليه العكس — من توهم ان في مستطاع قبيلة ان تسود الى الابد من غير ان تكون مسودة — كان في حاجة لا الى الاستقلال ، بل الى طيب عقول وطيب ابصار . لانه ما فقه من عبر التاريخ أبسطها وأقربها الى العقل والبصر . وهي ان دولاب الزمان ما يتفك يدور . وان البشرية العالقة به لا بدّ من ان يعلو بعضها هنا وينخفض هناك . ثم لا يلبث المنخفض ان يعلو والعالي ان ينخفض . فصبيكم الدولاب بالدم البشري لن يسرع في دورانه لحظة ولن يعطى لحظة

وبعد ذلك فالدم البشري دم ذكيّ طاهر فهو الاناء الحامل لجرثومة الحياة المباركة والنهم المقدس ومن الحرام ان يهراق الا في سبيل الحياة والنهم ، بل من الاثم ان يهدر بغير حساب على حدّ ما يهدر اليوم رضىة لاجواء يثيرها الجهل ويسوقها الموت . ولا بدّ لهذه الانسانية المقصودة بمفاسد البغض والجشع من صوت يهيب بها الى حتم دمايتها الزكية والاحتفاظ بما تبقى منها لفنايات ابل وأسهي من استبدال حكام بحكام ، وتخوم بتخوم ، وأوبئة بأوبئة

ان هذا الصوت سيخرج من الشرق — من هذا الشرق الذاهل اليرم عن نفسه وما في اطلابها من قم باسقة وفي أحماقها من أبعاد . ومن رسالته العلوية وما في رسالته من بلسم لجراح الانسانية الدامية ومن نور لا يبصارها القرحة وبصيرتها الكميّفة

بي ، ثم إي . من هذا الشرق متدفق أمواج ذلك الصوت الى ان تغمر الارض . من هذا الشرق المنكوب بأبنائه أشد من نكته بغير أبنائه . فهم يتظلمون له أمجاداً غير مجده والامجاد التي يتعلبونها هي التي جعلت من الأرض مسلخاً ، ومن الانسان فصاباً لاخيه الانسان ، ومن حياة الناس مجزرة هائلة ومقبرة شاسعة . هي دفعات من السموم التي أفسدت على الناس دماهم ولحومهم ، ونخرت عظامهم ، فصرقتهم عن نفوسهم وعن ربهم .

أما مجد الشرق الحقيقي فيكون في انه لن يطلب مجداً على الاطلاق ، بل يقول مع الناصري : « من أراد مكّم أن يكون ميّداً فليكن لكل خادماً » . أجل . سيكون الشرق خادم العالم . وسيخدم الانسان أينما كان لا بتحريره من حكم جاره . بل بتحريره من حكم نفسه . فما ساد من كان عبداً لنفسه وان حكم الشرق والغرب . ولا ذلّ من ساد نفسه ولن كان محكوماً من الناس أجمعين

لو قال لي قائل ان الشرق سيفعل غير ذلك او أقل من ذلك ، وانه لن يتمخض عن بعد هيجته الطوية بأكثر من حكومات جديدة وتقوم جديدة لأنكرت هذا الشرق ولصرخت من أحماق قلبي : « ألا ليت ما حبيل ولا تمخض »

غير اني واثق بأن الولود العنيد ان يأتي به الشرق ، سيكون أعظم من كل ذلك بما لا يقاس . فالشرق أخصب فكراً ، وأسمى خيالاً ، وأصح قلباً من أخلص الخلقين من زعمائهم . فكيف بغير الخلقين ؟ والشرق أصلب عوداً ، وأبند جذوراً في تربة الوجود من ان تلويه حياصة او يقتلعه اعصار .

وان تسألوني عن تقني بهذا الشرق من أين منبعها أجيبكم : من الحكمة التي فاضت على لسانه من زمان ، والتي يبلى الزمان وجدتها لا تبلى ، وتبور كل سلطة وسلطانها لا تبور . وهذه الحكمة لن يجلوها من جديد الا الشرق ولن يحسن الحكم بها الا الذي خلقها من نفسه ثم حكمها في نفسه . فلما ستكون السيادة في العالم المزمع ان يولد ، وعلى حدّوها مشي قرافلة جيلاً بعد جيل